مجلة الشرق الأوسط للنشر العلمي
المجلد (٨) العدد (٢)
الإصدار السادس والعشرون
(١-٢٢) ٢٠٢٥

أطروحة التغيير والإصلاح في فكر الإمام موسى الصدر

منى حسن خازم

This work is licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International License.

نشر إلكترونياً بتاريخ: ٦ مايو ٢٠٢٥م

الملخص

إن أطروحة التغيير التي قدمها الإمام الصدر هي أطروحة تقوم على الرؤية الكونية الدينية، وعلى ثنائية المادة والروح، والتفاعل الإيجابي بين هذين البعدين المادي والروحي، وبناء عليه فإن هذه الأطروحة شاملة لجميع الأبعاد الوجودية لدى الإنسان، فهي لا تهدف إلى التغيير في الأبعاد المادية لتهمل أبعاده المعنوية، ولا تبغي التغيير في أبعاده المعنوية لتهمل المادية منها، وإنما تهدف إلى التغيير الشامل في مختلف الأبعاد الوجودية وفي مختلف الميادين من اجتماعية وثقافية وتربوية واقتصادية وسياسية وغيرها من الميادين، بحيث لا يُهمل أي بعد، ولا ينجو أي ميدان من ميادين الاجتماع الإنساني من أن تمسه يد التغيير نحو الأفضل.[١]

إن أطروحة التغيير عند الامام الصدر تؤسس لمفهوم في التنمية الشاملة والمستديمة والتي تحمل توازنها وتكاملها وقدرتها على النفاذ إلى الأعماق الوجودية للإنسان، إنه مفهوم يحمل فرادته وتميزه عن مفاهيم التنمية ومعاييره المتداولة، كونه يرتكز على أسس الدين ورؤيته الكونية للوجود والإنسان والحياة وعلى منظومة مفاهيمية قادرة على توليد طاقة خلاقة للتغيير وأهدافه.[٢]

حيث يشكو الإمام الصدر تخلُّف مجتمعنا المسلم على مختلف الصعد من الإنتاج إلى الأخلاق. ويؤكد أن الواقع غير ما أراد الله الذي أراد لنا العزة، يقول سبحانه وتعالى: (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ).[٣]

[١] مخطوط بعنوان: التغيير ضرورة حياتية، إعداد مركز الإمام موسى الصدر للأبحاث١٨ - والدراسات، ص ٢٤١، ط١، بيروت، ٢٠١١ م

[٢] حسين شرف الدين، التنمية في مجتمع مضطرب الإمام الصدر والمجتمع المقاوم، ط١، بيروت، مركز الإمام موسى الصدر للأبحاث والدراسات، ٢٠٠٧م، ص ٩-١١

[٣] قرآن كريم، سورة المنافقون، الآية ٨

طبعًا لا يعترف أن يكون كل بلد إسلامي متأخّرًا في العالم، بل توجد في العالم مناطق مختلفة وبأشكال مختلفة، متقدمة ومتأخّرة لا ترتبط بنوعية الدين وعدم التدين. يعد الإمام الصدر أنّ محنة العصر، ومشكلات المجتمعات المعاصرة، هي في حسبان العطاء إنتاجًا ماديًا، وأنّ الإنسان آلة تعطي كمية من الطاقة المتحولة إلى العمل لمجتمعه. ونسينا أنّ الأكثر أهمّية من هذا وذاك، ممارسته للقيم وبناؤه الترابط الذّاتي بين الفرد والفرد، وبين الحاضر والماضي، الإيمان بالقيم والالتزام بالمطلقات.

ويرى الإمام الصدر، أن التّصدّي لهذه المشكلات بإجراءات تربوية واجتماعية تبدأ من الأسرة، وصولًا إلى رجال الدين، مروراً بباقي الهيئات والمؤسسات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

ان الركائز الثوابت لكل ثقافة هي القيم، فاذا كانت القيم الحية المحركة هي القيم الفردية والعشائرية (القبلية) التي لا تأخذ بعين الاعتبار حاجيات المجتمع والجماعة، وكانت معادية للتغيير والابداع والتطور وتحول دون الاجتهاد والانفتاح والحوار، إذا كانت هذه القيم لا تخدم حقوق الانسان وكرامته، فإنها لا تكون ثقافة نابعة من الاسلام ولا معبرة عنه، لأنها تؤدي الى تفسخ المجتمع وتخلفه، والى ضعف الدولة وانحلالها، والى تقييد البشر بالقيود والاغلال.

إن ميزة الثقافة الاسلامية في كل عصر وزمان هي أنها تدعو الى الوحدة والحوار والتقدم في مختلف مجالات التطور العقلي، وتتمثل كل جديد وكل معرفة وتعتبر ذلك سبيلاً الى الله تعالى وما لم تنشد الثقافة ذلك، فإنها لن تكون ثقافة اسلامية حقيقية. "الثقافة الإسلامية تحرّك الإنسان حركة دائمة نحو التقدم في مختلف مجالات التطور العقلي، وتتحمل كل جديد وكل معرفة بقلب مشتاق، وتعتبرها سلوكاً الى الله ومعرفة له وكمالاً للإنسان. والمعرفة هذه غاية خلق الإنسان وكمال مطلق له. فالسير نحوها واجب وعبادة، وكمال".[٤]

حيث يبدي الإمام الصدر قابلية على الانفتاح الثقافي على الآخر، ولكن بشرط أن يكون هذا الانفتاح محققاً للرسالة المجتمعية الكبرى للإنسان. "إنَّ الدراسات والمطالعات في مختلف الحقول الثقافية تنطلق في عالم رحب واسع وتحتفظ بإطاره الرباني الثّابت الذي لا بدَّ منه في الحياة".[٥]

ويضيف الإمام، رابطاً في هذا المجال بين ما هو أساسيَّة الحريَّة في وجود الإنسان وما هو علم ومعرفة؛ فيقول: "حرية الإرادة مُهيَّأة للإنسان لا فضل له بها، بل الفضل كله أن يختار الخير، وهذا طريق لا يمكن السير فيه إلا بالعلم الذي هو العنصر الأصيل في تكوين خليفة الله في الأرض".[٦]

ومن هذا المنطلق يمارس الإمام انفتاحا فكرياً على الآخر، ويبدو هذا الانفتاح جلياً من خلال قول الإمام:" إن الإسلام يرحب بكل حركة فكرية إيجابية وكل تطوير عقلي سليم،

[٤] الإمام موسى الصدر، الإسلام وثقافة القرن العشرين، منبر ومحراب، أُلقيت في "الندوة اللبنانية"، بتاريخ: ١٩٦٥/٥/٢٤، ونُشرت في "منبر ومحراب" في ١٩٨١/٨/٣١

[٥] الإمام السيد موسى الصدر، الإسلام وثقافة القرن العشرين، مركز الإمام الصدر للأبحاث والدراسات، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠، بيروت، ص٣٦

[٦] المصدر نفسه، ص٤١

ويعتبر كل هذا جزءاً من رسالة الإنسان في الحياة وواجباً من واجباته".[٧]

كلمات مفتاحية: محنة العصر، الاجتماع الإنساني، جوهر البنية الفكرية، الحرية الإنسانية، الانفتاح الثقافي.

*** المقدمة**

إن الإصلاح والتجديد والتغيير حاجاتٌ ملحة، تفرضُ نفسها باستمرارٍ في عصرِ تسارعِ كلِ شيء، بل هي ضروراتٌ حياتية بها يتجدد الإنسانُ وتتجدد الحياة.

تقوم ثقافة الإصلاح والتغيير، من ضمن ما تقوم به على التصدي للجمود والانغلاق والانكفاء والاكتفاء على كل المستويات، بناء على فهم واع للعصر، ظروفه ومقتضياته ورؤية واضحة لمنظومات القيم والثوابت الأخلاقية والإنسانية وبشكل يجعل هذه الثقافة في خدمة المجتمع، كل المجتمع.

إنَّ ما تشهده الإنسانيَّة اليوم، قادماً من الغرب السياسي، من ظواهر هيمنة القطب السياسي الواحد على العالم باسم العولمة وما ينتج عنها من مصطلحات في عالم السياسة أو الاقتصاد أو الاجتماع أو سوى ذلك، لا بدَّ من إعلان محاربته إذ إنَّه ليس سوى أسلوب لسلب الحريَّة الإنسانيَّة وغصبها، وهو سعي لإعاقة الإرادة الإلهيَّة المقدسة في الوجود الإنساني وغايته.

يقول الإمام الصَّدر: "من الاستبداد إلى الاستعمار، ومن الاقطاع إلى الإرهاب الفكري، وادِّعاء الوصاية على النَّاس واتِّهامهم بأنَّهم لا يفهمون. ومن الاستعمار الجديد إلى فرض المواقف على الأفراد والشعوب، فضغط اقتصادي أو ثقافي أو فكري. ومن سياسة الإهمال لإبعاد الفُرَصِ عن النَّاس، بعض النَّاس، وعن المناطق، بعض المناطق، منها إلى التَّجهيل، وحتَّى منع الصّحة عن النَّاس وفرص التَّحرُّك والتَّنمية، صور وأشكال لِسَلْبِ الحريَّات ولتحطيم الطاقات"[٨].

أما على مستوى مقومات التغيير والإصلاح فإنَّ الإصلاح الحتمي يحتاج إلى مقومات دقيقة ورؤية شمولية للواقع من كافة أبعاده وجهاته، فهو يحتاج إلى نظرة ثاقبة تتجاوز حدود الزمن لترمق المستقبل بنفس الوضوح الذي تنظر فيه إلى الحاضر، مما يجعل صاحب المشروع الإصلاحي، يخطط للأمة في حاضرها من أجل أن تجني الثمار في حاضرها ومستقبلها، أي أنها تؤسس منهجاً إصلاحياً وليس مجرد عمل إصلاحي وهي حقيقة تاريخية في قانون التطور في مجالات الفكر والاجتماع.

وعلى هذا الصعيد فإن الإمام السيِّد موسى الصَّدر يبني آراءه، في مجال التَّفاعل الإنسانيّ والتَّلاقي الحياتيّ بين الناس على أساس فهم عملي لرسالة الإسلام، قِوامُها أنَّ الإسلام يبني "قواعد لتنظيم صلة الفرد بالفرد، وبالمجتمع، وبالكون، ويُرشد إلى كيفيَّة معاملة الإنسان لأخيه الإنسان ويبعث في نفس المؤمن أملاً بالمستقبل وحُسنَ ظنٍّ بالآخرين وإيماناً

[٧] المصدر نفسه، ص ٤٢

[٨] السيد حسين شرف الدين، أبجديَّة الحوار – محاضرات وأبحاث للإمام السيد موسى الصَّدر، صور: دار الأرقم، الطبعة الأولى، ١٩٩٧، ص. ١٧١. صدر هذا الكلام في الخطبة الشَّهيرة للأمام "حفاظا على الإنسان"، في كنيسة الكبوشيَّة في بيروت ١٩٧٥/٢/١٨، ونص الخطبة مثبت.

بنجاح دعوة الحق وانتصار العدالة التي تؤيدها قوى الكون وتناصرها ضمائر بني الإنسان".[٩]

ولكن عملية تغيير ما بالنفس لا تتمّ في المناخات القلقة. فالاستقرار والاطمئنان نفسياً وفكرياً هما الأداتان الرّئيستان للأجواء التّغييرية، وهذه الأجواء تتوفر، بالكلمة الشّرعية الطبيعية، كلمة الله، وليست والوضعية، لأنها الكلمة التي لا تتغير، وإنما الّذي يتغّير هو المفهوم البشري لها،" يعني إنّ أيَّ فهم جديد للقرآن، وفي أيِّ مستوى كان هو صحيح، عندما يحصل بحسب القواعد المعتمدة في الكلام، ويمكن اعتماده والتّمسّك به في تنظيم شؤون الحياة وفي كلام النّاس، وقد لا يمكن اعتماد هذه القاعدة، لأنّ الإنسان يعبّر عن مستوى ثقافيّ لا يمكنه تخطّيه؛ ولذلك، لا يجوز فهم كلامه إلاّ في حدود مستوى ثقافته".[١٠]

والنتيجة أنّ ليس هناك شيء يطور حياة الإنسان من الخارج، ولا هنالك فَقْدُ عامل من عوامل الحياة الإنسانية تتغيّر الحياة من أجل انعدامه، يقول الله سبحانه وتعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ }.[١١]

*** أطروحة التغيير عند الإمام الصدر**

إن أطروحة التغيير التي قدمها الإمام الصدر هي أطروحة تقوم على الرؤية الكونية الدينية، وعلى ثنائية المادة والروح، والتفاعل الإيجابي بين هذين البعدين المادي والروحي، وبناء عليه فإن هذه الأطروحة شاملة لجميع الأبعاد الوجودية لدى الإنسان، فهي لا تهدف إلى التغيير في الأبعاد المادية لتهمل أبعاده المعنوية، ولا تبغي التغيير في أبعاده المعنوية لتهمل المادية منها، وإنما تهدف إلى التغيير الشامل في مختلف الأبعاد الوجودية وفي مختلف الميادين من اجتماعية وثقافية وتربوية واقتصادية وسياسية وغيرها من الميادين، بحيث لا يُهمل أي بعد، ولا ينجو أي ميدان من ميادين الاجتماع الإنساني من أن تمسه يد التغيير نحو الأفضل.[١٢]

"إن هذا التغيير هو تغيير مستديم، فكون الهدف هو الله تعالى فمعنى ذلك أن غاية التغيير سوف تكون السعي الدائم نحو الأفضل، الذي كلما بلغ رتبة منه ستنتظره رتب أكثر كمالاً، وأبعد سمواً".[١٣]

"كون هذا التغيير يرتكز على ثنائية المادة والروح فهو ينطلق من التغيير في النفس الإنسانية، بحيث يكون هذا التغيير أبعد عمقاً وأشد ثباتاً وأكثر قدرة على الوصول إلى مقاصده وغاياته".[١٤]

فإن هذا التغيير يقوم على التفاعل البناء والإيجابي بين مختلف الأبعاد الوجودية والميادين الاجتماعية، حيث "إن التغيير الحقيقي في النفس الإنسانية في محتواها العقدي والتربوي

---

[٩] الإمام السيد موسى الصدر، الإسلام وثقافة القرن العشرين، ص٣٣، مركز الإمام الصدر للأبحاث والدراسات، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠، بيروت

[١٠] السيد حسين شرف الدين، مشاركة بعنوان: "الإمام موسى الصدر وحق الحياة على الإنسان". ضمن أعمال مؤتمر كلمة سواء الثالث، عنوانه: بحثاً عن حق الإنسان، م. م. ص ١٦٦-١٦٧

[١١] قرآن كريم، سورة الرعد، الآية ١١

[١٢] مخطوط بعنوان: التغيير ضرورة حياتية، إعداد مركز الإمام موسى الصدر للأبحاث١٨ - والدراسات، ص ٢٤١، ط١، بيروت، ٢٠١١ م.

[١٣] المصدر نفسه، ص٢١١

[١٤] المصدر نفسه، ص ٢٤١

وغيره، لا بد أن يقود إلى التغيير الجدي في بقية الأبعاد الوجودية والميادين الاجتماعية المختلفة، كما إن التغيير العميق والجدي في هذه الأبعاد والميادين لا بد أن يرتكز على تغيير حقيقي في النفس الإنسانية ومحتواها".[١٥]

إن أطروحة التغيير عند الامام الصدر تؤسس لمفهوم في التنمية الشاملة والمستديمة والتي تحمل توازنها وتكاملها وقدرتها على النفاذ إلى الأعماق الوجودية للإنسان، إنه مفهوم يحمل فرادته وتميزه عن مفاهيم التنمية ومعاييره المتداولة، كونه يرتكز على أسس الدين ورؤيته الكونية للوجود والإنسان والحياة وعلى منظومة مفاهيمية قادرة على توليد طاقة خلاقة للتغيير وأهدافه.[١٦]

يعتبر الإمام الصدر التحرير والتغيير نتيجة التفاعل المستمر بين الإنسان وبين الكون المحيط به، وليس ناتجا عن حدوث عنصر جديد في مسرح حياته، ولا غياب عنصر عنه، ومعالم التّطور "أنَّ الإنسان يبحث فيقرأ سطرًا جديدًا من كتاب الكون فيطلع على عنصر جديد أو طاقةٍ جديدةٍ في الشّيء الذي يعرفه، وعند ذلك يستفيد من علمه من جديد في سبيل تحسين وضعه، ليستعمل الجديد، ويطوّر حياته والكون المحيط به، ويتطوّر هو أيضًا، ثمّ ينطلق من المرحلة الحياتية الجديدة للبحث عن جديد آخر، وهكذا".[١٧]

"نحن قلنا إن الإنسان بطبيعته يتحرك نحو الكمال وعندما يتحرك نحو الكمال، إذا وجد في طريقه صعوبات، يتصدى لهذه الصعوبات ويتقدم هذه طبيعة الإنسان منذ أن كان وفي أي مكان".[١٨]

كان الإمام موسى الصدر يحاول معالجة قضايا المجتمع الكبرى كلّها ويسعى كي يجد لها حلولًا، فيدلو بدلوه فيها، ويحاول رسم ملامح العلاقة بين الدين والعلم من خلال قراءته للدين الإسلامي.

إننا نلحظ تأكيد الإمام الصدر على جوهر الدين والإيمان وحقيقته التي تنزع نحو التغيير، ولعل المشروع الإصلاحي الذي كان يحمله الإمام الصدر من جهة، والتطورات الخاطئة التي كانت تطرح حول الدين من جهة أخرى، كانا يلحان على الإمام الصدر للتأكيد على هذه الحقيقة أن فلسفة الدين هي فلسفة تغييرية وأن جوهر الدين والإيمان لا يرضى الجمود ولا يرتضي الركون.[١٩]

فإن الإمام الصدر يربط بين حقيقة الإيمان وفعل التغيير، وأن الإيمان في جوهره يدفع باتجاه التغيير الفردي والاجتماعي وفي جميع الميادين، بل كلما كانت درجة الإيمان أكبر كلما كان السعي إلى التغيير أكثر، في علاقة لا تنفصم بينهما. كما يوضح الإمام الصدر أن الفرد إذا كان مؤمناً فإنه

---

[١٥] مخطوط بعنوان: التغيير ضرورة حياتية، إعداد مركز الإمام موسى الصدر للأبحاث، مصدر سابق، ص ١٠و ٢٠١

[١٦] حسين شرف الدين، التنمية في مجتمع مضطرب الإمام الصدر والمجتمع المقاوم، ط١، بيروت، مركز الإمام موسى الصدر للأبحاث والدراسات، ٢٠٠٧م، ص ٩-١١

[١٧] حسين شرف الدين مشاركة بعنوان: "الإمام" موسى الصدر وحق الحياة على الإنسان"، ضمن أعمال مؤتمر كلمة سواء الثالث، عنوانه: بحثًا عن حق الإنسان، م. م.، ص ١٦٦

[١٨] موسى الصدر، تسجيل صوتي من محفوظات مركز الإمام موسى الصدر للأبحاث والدراسات، (د.ت).

[١٩] مخطوط بعنوان: التغيير ضرورة حياتية، إعداد مركز الإمام موسى الصدر للأبحاث ١٨- والدراسات، ط١، بيروت، ٢٠١١ م، ص ١٥

لا يقبل بما هو عليه بل يسعى دوماً إلى الأفضل، فهو يريد أن يكون أفضل على المستوى الفردي، وأن يكون أفضل على المستوى الأسري، وأن يكون أفضل على المستوى المجتمعي، وهو دائماً نزاع إلى الأفضل، وهو ما يجعله في حركة دائمة للتغيير والسعي نحو الأفضل.[٢٠]

*** الطريقة المثلى للتغيير عند الإمام الصدر**

يعتبر الإمام الصدر أن الطريقة المثلى للتغيير في الإسلام، لا تكون بالعنف إنما تكون في الأهداف، حيث تكون الغاية من ذلك الهدف هو التغيير في وضع المجتمع.

إن غاية الدين الإسلامي أن يربي الإنسان تربية كاملة وشاملة، ويكوِّن للفرد مجتمعاً صالحاً. حيث يتوجه إلى الفرد من خلال الحقول الأربعة في الإسلام، يربيه ثقافيا التي تعني المفاهيم الجديدة الإسلامية، وعقائدياً، وعملياً وأخلاقياً. بالإضافة إلى نوع آخر من الأحكام، وهو الأحكام الاجتماعيّة، هذه الأحكام التي بموجبها يريد الإسلام أن يصون الفرد.

"يريد الإسلام أن يكوِّن للإنسان المسلم مجتمعا صالحا، يتمكن المجتمع الصالح من صيانة الفرد وإبقائه في الخط الصحيح، ونموه. لماذا الاهتمام بالمجتمع؟ لأن الإسلام يعرف كما نحن نعرف أن الإنسان موجود اجتماعي، لا يمكن إلّا في الحالات النادرة النادرة جداً أن يبقى الإنسان صحيحاً في مجتمع فاسد. فلكي نتمكن من صيانة الإنسان صيانةً كاملة، كان على الإسلام أن يكوِّن للإنسان مجتمعًا صالحًا".[٢١]

إن الإسلام يربي الفرد يعطي له التعاليم، ثم يشكِّل له مناخاً لصيانته. حينما يفقد الإنسان المسلم هذا المناخ بما عنده من العادات، أخلاقاً وعملاً وعقيدة وثقافة، يمشي في العالم الغير منسجم معه خلال فترة طويلة يقضي عليه تماماً.

"والإسلام لا يحصر الطريق في العنف بل قد يعتمد الوسائل الأخرى لذلك لا يمكن اعتباره ثوري الطريق بينما يُعتبر الإسلام ثورياً في الأهداف. لأن الإسلام قدم للإنسان رؤية وعقيدة (أيديولوجية) وثقافة ونظاماً كاملا للحياة وتعاليم فقهية وأخلاقية تختلف تماماً مع الرؤية والعقيدة والثقافة والنظام والتعاليم التي كانت في متناول الإنسان قبله".[٢٢]

الإسلام بجعله الهدف الرجوع إلى الله {وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ}[٢٣]

"حيث إن الإسلام يفترض أن الإنسان المؤمن لا يقبل وضعه الحاضر ولا وضع مجتمعه. كما يفترض أن يسعى المؤمن لتغيير هذا الوضع. وهذا يجعله يصطدم مع ذاته ومع المنتفعين من وضع مجتمعه فتبتلى البلاء الحسن – وكلما كان أكثر إيماناً ووعياً، كلما كان هدفه التغييري أبعد ودرجة بلائه أكثر ابتداءً من النبي الذي يغيّر الأساس ثم الوحي الذي يمنع

[٢٠] المصدر نفسه، ص٢٠
[٢١] موسى الصدر، الإسلام والمجتمع: محاضرات للإمام السيد موسى الصدر موسى الصدر ط ١. - بيروت: مركز الإمام موسى الصدر للأبحاث والدراسات ٢٠١٩، ص ٧٥

[٢٢] موسى الصدر، التغيير ضرورة حياتية محاضرات ومقالات للإمام السيد موسى الصدر/ موسى الصدر. - ط ١. - بيروت مركز الإمام موسى الصدر للأبحاث والدراسات، ٢٠١١، ص ٧
[٢٣] 156 قرآن كريم، سورة البقرة، الآية"

التحريف ويغيّر الطبائع الموروثة التي ترغب في تمييع الأهداف ثم الأمثل"[٢٤].

*** الهدف هو الأساس في منظومة التغيير**

إن الهدف هو الأساس في منظومة التغيير عند الإمام الصدر، لأنه بمقدار ما يكون الهدف أقرب إلى مقولة الحق (بالمعنى القرآني) وأسمى في قوس الوجود، كلما كان أقدر على تحقيق التطلعات الحقيقية لمشروع التغيير، وأكثر فاعلية في تحفيز التغيير ودفعه بشكل مستديم وخلاق. يؤكد الإمام الصدر على هذا المعنى عندما يربط بين الرؤية الكونية وبين فعل التربية والتغيير،" حيث أن فعل التغيير هذا يجب أن يكون مبنياً على رؤيتين: الكون والوجود ومتماهيًا معهما. في سعي إلى إيجاد الانسجام التام بين ما نذهب اليه من رؤية كونية، وبين تصوري لما يجب أن يكون عليه الإنسان والمجتمع في الخارج"[٢٥]..

يقول الإمام "عندما أعتقد من خلال رؤيتي الكونية أن الكون مبني على الحق والعدل هذا يعني ضرورة العمل من أجل بناء الإنسان والمجتمع على الحق والعدل، وإلا سوف يحصل هناك انفصام وجودي بين ما عليه الإنسان والمجتمع وما عليه الوجود الكوني وحقيقته".[٢٦]

"إنه من أجل أن يحصل تناسب وجودي بين الإنسان والكون يجب أن يكون هذا الإنسان عادلاً وعاملاً بالحق، وحتى يكون المجتمع متناسباً مع الكون يجب أن يكون المجتمع مجتمعاً عادلاً وعاملاً بالحق، عندها يحصل هذا التناسب الوجودي بينهما ويكون المجتمع في حقانيته (من الحق) وعدالته تعبيرًا عن الكون وحقيقته الوجودية".[٢٧]

لا شك أن الرؤية الكونية التي يطرحها الإمام الصدر تعطي ذلك البعد الأوسع للتغير والتي ترتكز على النفس وينطلق منها إلى الدوائر الأخرى من اجتماعية وسياسية واقتصادية وغيرها، وهي مبنية على وجود هذه النفس وقابليتها للتغيير والتكامل، وقدرة الإنسان على العمل للتغيير في نفسه، من خلال فهمه لما يغير هذه النفس ويأخذها في مدارج الكمال.[٢٨]

إن هذا المعنى نجده واضحاً في القرآن الكريم حيث يقول تعالى: ﴿نّ اللّهَ لا يغَيّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتّى يغَيّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[٢٩]

فنلحظ أن القرآن الكريم تحدث هنا عن تغييرين، تغيير ما بالقوم، وتغيير ما بالأنفس، وربط الأول بالثاني، أي أن جميع التغييرات التي في القوم والمجتمع في مختلف الأبعاد، لا تتم ما لم تكن مستندة إلى ذلك التغيير الذي يجب أن يقوم به ذلك القوم في أنفسهم، أي في أخلاقهم وقناعاتهم ومعتقداتهم... عندها يغير الله تعالى ما بهم وما في مجتمعاتهم

---

[٢٤] المصدر السابق، ص ٨١-

[٢٥] الإمام السيد موسى الصدر، أبجدية الحوار محاضرات وأبحاث للإمام السيد موسى الصدر، إعداد وتدقيق حسين شرف الدين، ط٢، بيروت، مركز الإمام موسى الصدر للأبحاث والدراسات، ٢٠٠٧م، ص ١٩١

[٢٦] المصدر نفسه

[٢٧] أبجدية الحوار: محاضرات وأبحاث للإمام السيد موسى الصدر، م س، ص ١٩٢

[٢٨] أبجدية الحوار: محاضرات وأبحاث للإمام السيد موسى الصدر، م س ص ١٩٠-١٩١

[٢٩] قرآن كريم، سورة الرعد، الأية ١١

ومختلف أوضاعهم من ثقافية، واجتماعية وسياسية واقتصادية وتنموية وغير ذلك.[٣٠]

"ولكن عملية تغيير ما بالنّفس لا تتمّ في المناخات القلقة. فالاستقرار والاطمئنان نفسيًّا وفكريا هما الأداتان الرئيستان للأجواء التغييرية، وهذه الأجواء تتوفّر أولا بالكلمة الشرعية الطبيعية كلمة الله، وليست الوضعية، لأنّها الكلمة التي لا تتغير، وإنّما الذي يتغير هو المفهوم البشري لها، (يعني إنّ أي فهم جديد للقرآن، وفي أي مستوى كان هو صحيح، عندما يحصل بحسب القواعد المعتمدة في الكلام، ويمكن اعتماده والتمسك به في تنظيم شؤون الحياة وفي كلام النّاس، وقد لا يمكن اعتماد هذه القاعدة، لأنّ الإنسان يعبّر عن مستوى ثقافيّ لا يمكنه تخطيه؛ ولذلك لا يجوز فهم كلامه إلّا في حدود مستوى ثقافته).

وتتوفر ثانيًا؛ في الجو المطمئن الّذي يعتمد على الأسرة التي تشكّل جانبًا مهماً من حياة المجتمع البشري

وتتفاعل مع المجتمع بصورة متقابلة فتتأثر بالتطورات الاجتماعيّة، وتؤثر في المجتمع بدورها".[٣١]

*** التغيير عند الإمام الصدر المنبع الأساس للفعل والسلوك البشريين**

إن رؤية التغيير عند الإمام الصدر هي المنبع الأساس للفعل والسلوك البشريين، حيث يشير الإمام الصدر إلى هذا المعنى عندما يتحدث عن أنواع التربية، وتحديداً ذلك الذي يتوجه إلى قلب الإنسان وقناعاته، لأنه يرى أن فعل الإنسان وسلوكه يرتكز على قناعاته النفسية وما انطوت عليه نفسه من كمالات ومعتقدات، وعليه فإن التغيير الجذري والفاعل هو الذي يتوجه إلى الطبقات الأكثر عمقاً في أفعال الناس وسلوكها، أي إلى النفس الإنسانية باعتبارها المنبع الأساس لتلك الأفعال وذلك السلوك.

"إن الاهتداء إلى المنبع الأساس للفعل والسلوك البشريين، وبناء رؤية للتغيير ترى أن تغيير ذلك الفعل والسلوك- وتالياً المجتمع والثقافة وسوى ذلك- إنما يتم من خلال التغيير في المنبع أو المصدر الحقيقي لذلك الفعل والسلوك؛ سوف يمنح المجتمع فاعلية خاصة وقدرة تغيير استثنائية، وأخلاقية قد لا تكون متاحة لأية منظومة فكرية أخرى، لا تضع إصبع التغيير على جرح المصدر، أي المصدر الحقيقي للفعل وكونه يمتد إلى النفس الإنسانية".[٣٢]

بل يذهب الإمام الصدر في ثنائية المادة والروح أو الجسم والنفس ويقدم قراءة للبعد الروحي تستوعب جميع حركات وخلجات الإنسان، حيث يجعل الإمام الصدر الميزان أو المعيار في كون أمرٍ ما روحياً أو مادياً هو الباعث أو الدافع لهذا الأمر. (وهو كامن في النفس) سواءً كان محله في المادة – البدن، أو في الروح- النفس، فإن كانت الدوافع سامية فإن

---

[٣٠] الشيخ محمد شقير، فلسفة الدين عند الإمام الصدر هي فلسفة تغييرية، كلمة سماحة الشيخ محمد شقير في الجلسة الأولى من مؤتمر "كلمة سواء" الثاني عشر

[٣١] حسين شرف الدين مشاركة بعنوان: الإمام موسى الصدر وحق الحياة على الإنسان، ضمن أعمال مؤتمر كلمة سواء الثالث، عنوانه: بحثًا عن حق الإنسان، م. م.، ص ١٦٦ و١٦٧

[٣٢] موسى الصدر، التغيير ضرورة حياتية محاضرات ومقالات للإمام السيد موسى الصدر/ موسى الصدر. - ط ١- بيروت مركز الإمام موسى الصدر للأبحاث والدراسات، ٢٠١١، ص ١٧

هذا الفعل سوف يكون ذا طابع روحي، بغض النظر عن محل هذا الفعل وموطنه أنه في الإطار الروحي فقط أم أيضاً في الإطار المادي، وأما إذا كانت الدوافع غير سامية فإن هذا الفعل لا يمكن تصنيفه في الإطار الروحي بغض النظر عن شكل هذا الفعل وظاهره.[٣٣]

*** مشروع الإمام الصدر الحضاري الإصلاحي**

انطلاقًا من فهمنا لشخصية الإمام الصدر وفكره ومشروعه الحضاري الإصلاحي، يمكننا تتبع حركته وكيفية سعيه إلى تنفيذ هذا المشروع في مختلف الساحات التي تحرك فيها، والتحديات التي واجهته.

كانت مسيرة الإمام الصدر في مراحلها المكانية والزّمانية كافة نابعة من منظومة فكرية متكاملة ترتكز إلى: –

الإيمان بالله وهو الأساس في هذه المنظومة، إذ يقول في نداء وجهه إلى اللبنانيين عبر التلفزيون مساءَ ١٩٧٠/١/٢٩: "الإيمان بالله الذي هو ثقة وطموح وأمل الإيمان بالله الذي يوصل الموت بالحياة؛ فيمدّد وجود الإنسان وعطاءه، الإيمان الذي يجنّد طاقات الفرد، ويوحد طاقات الجماعة، وينشق سلوك الإنسان مع حركة الكون في موكب الحياة من الأزل إلى الأبد".[٣٤]

وقف الإمام الصدر طويلاً أمام محنة الإنسان المعاصرة، حيث أرجع قلق الإنسان المعاصر، بأنه ناجم عن عدم استجابته الى مستلزمات إيمانه، ولا علاج له إلا بالعودة الى خيمتها.

"أرجع الإمام الصدر قلق الانسان المعاصر الى (التنكر لله وإعطاء الإنسان صفة الاطلاق لمصنوعاته حيث لم يعد هناك استقرار او اطمئنان في حياته)".[٣٥]

"ما دام قد غادر فسطاط الروح وخيمة الخالق. فالقلق ناجم عن عدم استجابة الانسان الى مستلزمات إيمانه، ولا علاج الا بالانتماء الكلي (للقوة الربانية الكونية) والعودة الى خيمتها. وان مكاسب الانسان المعاصر مهما بلغت كما وكيف وشمولا فهي لا تتعدى نطاق الانسان ولا تخرج عن انها من مصنوعاته".[٣٦]

"نعم فلا تجاوز لإخفاقات الإنسان المعاصر واخفاق النظريات الفلسفية المعاصرة الا بالاستقرار والطمأنينة وبعودته الى الإيمان المطلق".[٣٧]

دور الناس في هذه المنظومة الفكرية، الناس كلّهم، خصوصًا الناس المعذبين والمحرومين، إذ أكّد ضرورة "أن نبدأ التغيير من قلب المجتمع من القاعدة وصعودًا إلى القمة وليس العكس. أمّا الحكّام فبالإمكان مسايرتهم واتباع أسلوب

---

[٣٣] موسى الصدر والخطاب الإنساني، م س، ص ١٠٤- ١٠٧؛ يمكن الرجوع أيضاً: طه غسان فوزي، النهوض الحضاري في فكر الإمام موسى الصدر ط١، بيروت، معهد المعارف الحكمية، ٢٠٠٧ م، ص ٣٨-٤١

[٣٤] محمد علي مهتدي، فكر الإمام الصدر، مشاركة بعنوان: "البعد العربي - الإسلامي في مسيرة الإمام موسى الصدر"، ضمن أعمال مؤتمر كلمة سواء الرابع، عنوانه: الهوية الثقافية. قراءات في البعد الثقافي لمسيرة الإمام السيّد موسى الصدر، م. م.، ص ٦٠

[٣٥] السيد موسى الصدر: حوارات صحفية: تأسيس المجتمع مقاوم ص ٧٢-٧٣

[٣٦] المصدر نفسه، ص ٧٤١-

[٣٧] المصدر نفسه، ص ٧٢١

المماشاة معهم وإبقاؤهم دائمًا في حال من الخوف والرجاء، من دون أن نهملهم أو نستفزهم كلّيًّا قبل أن يبلغ التغيير في قاع المجتمع المستوى المطلوب"[٣٨].

*** مشكلات المجتمعات المعاصرة وسبب تخلف المجتمعات**

يشكو الإمام تخلُّف مجتمعنا المسلم على مختلف الصعد من الإنتاج إلى الأخلاق. ويؤكد أن الواقع غير ما أراد الله الذي أراد لنا العزة، يقول سبحانه وتعالى: (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ).[٣٩]

طبعًا لا يعترف أن يكون كل بلد إسلامي متأخّرًا في العالم، بل توجد في العالم مناطق مختلفة وبأشكال مختلفة، متقدمة ومتأخّرة لا ترتبط بنوعية الدين وعدم التدين. يعد الإمام الصدر أنّ محنة العصر، ومشكلات المجتمعات المعاصرة، هي في حسبان العطاء إنتاجًا ماديًا، وأنّ الإنسان آلة تعطي كمية من الطاقة المتحولة إلى العمل لمجتمعه. ونسينا أنّ الأكثر أهمّية من هذا وذاك، ممارسته للقيم وبناؤه الترابط الذّاتي بين الفرد والفرد، وبين الحاضر والماضي، الإيمان بالقيم والالتزام بالمطلقات.

المشكلة حسب رأيه هي في أنّ "الإنسان اليوم آمن بإله غير الله، آمن بالمصلحة، بإله نفسه، فصار ذاته قدس الأقداس عنده، وارتبط بالآخرين من خلال إيمانه بالمصلحة فلا صداقة ولا عداوة بل! المصلحة فلا عدل ولا صدق ولا وفاء. بل! المصلحة من خلال مصلحته تصرّف، ومن خلال ذاته ارتبط، فصار هو إلها في رأيه، وصار هو غريبًا في مجتمعه، يرتبط مع الآخرين من خلال المصالح المشتركة".[٤٠]

ومن خلال قراءة الإمام الصدر لأصل المشكلة يلاحظ كيف صار حالنا: "العائلة شركة والوطن شركة والأمة شركة والصداقة شركة والتّعاون مشاركة في الدفع والأرباح.. والشّركة تخضع للمصالح والمصالح تتطوّر وتتبدّل، فلا ثبات، بل تزلزل واهتزاز وتفكّك دائم.. ومن ثمّ ليس إلا القلق المرير".[٤١]

ومن ثم يقول: "إنّ الإنسان تقدّم في حقل العلم؛ فاكتشف المجهول... وسيطر على القوى الكونية.. ووصل إلى القمر ولكنّه غريب، في منتهى الغربة، لأنّه لا يرتبط بالآخرين.. كيف يرتبط وهو لا يتعدّى إله نفسه". ويتابع متسائلًا: "ماذا يربط الإنسان بأخيه الإنسان إذا لم يكن مؤمنًا بالقيم وممارسًا لها؟ كيف يرتبط الإنسان بأخيه الإنسان إذا خرج من نطاق الصدق، والحق، والحب والود، والعدل والحق المطلق؟!".[٤٢]

ويلاحظ، متأسفًا، أنّ هذا هو المصير على الرّغم من تقدّم العلم المتزايد. وليس هناك بالتالي أي ترابط بين الحاضر والماضي، وبين المستقبل والحاضر، فالانفصام المطلق يتحكّم

---

[٣٨] محمد علي مهتدي، في فكر الإمام الصدر، مشاركة بعنوان: "البعد العربي - الإسلامي في مسيرة الإمام موسى الصدر" مصدر سابق، ص ٦١

[٣٩] قرآن كريم، سورة المنافقون، الآية ٨

[٤٠] موسى الصدر، محاضرة بعنوان "مأساة رجل الدين"، ضمن كتاب: موسى الصدر والخطاب الإنساني، م. م.، ص ٣٢ ٤ م.ن.، ص ٣٢

[٤١] موسى الصدر، مأساة رجل الدين، أُلقيت بمناسبة تأبين سماحة العلامة السيد محمد حسن فضل الله بتاريخ ١٤/١١/١٩٧٢، ونُشرت في مجلة العرفان، العددان ٨ ـ ٩، المجلد ٦١، تشرين الأول/ تشرين الثاني سنة ١٩٧٣

[٤٢] المصدر نفسه

بين الجيل الحاضر وبين الجيل الصاعد، وهناك المشاكلات المتكاثرة.

ويرى الإمام الصدر، أن التّصدّي لهذه المشكلات بإجراءات تربوية واجتماعية تبدأ من الأسرة، وصولًا إلى رجال الدين، مرورًا بباقي الهيئات والمؤسسات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

يَعدُّ سماحته نوعًا واحدًا من الحكم للإسلام، ولكن نوعان من التعاليم: نوع يتوجه إلى الفرد فيربي الفرد ثقافيًا وعقائديا وعمليا وأخلاقيا. والنوع الثاني من الأحكام هي الأحكام الاجتماعيّة. فلأجل صيانة الإنسان صيانة كاملة، كان على الإسلام أن يكوّن للإنسان مجتمعًا صالحًا. هذا المخطط الذي شمل مهمتين في حياة الرّسول الأكرم مهمّة الرسالة؛ يعني إبلاغ الأحكام، ومهمة الولاية؛ يعني تطبيق الأحكام وخلق مجتمع إسلامي. عشر سنوات مارس مهمتيه عليه الصلاة والسّلام، ثم وضع خطة للاستمرار ببناء المجتمع الإسلامي ولتكوين هذا المجتمع المسلمون لم ينفذوا فانحرف الموضوع. بقي الفرد المسلم بقوة الاستمرار، يركض فترة في الخط الإسلامي... فإذا المسلمون تخلفوا لأنّهم فقدوا المجتمع الإسلامي، وإذا أرادوا أن يرجعوا عليهم أن يكونوا المجتمع الإسلامي، ولا تنفعهم النّشاطات الفردية إلّا جزئيًا جدًّا.[٤٣]

يؤكد الإمام الصدر أنّ النّبي الأكرم (ص) عمل على صعيدين: وضع الأسس السليمة لتربية الفرد ووضع الأسس لتكوين المجتمع. ويعد الإمام المسؤولية الاجتماعيّة هي عملية تربويّة تبدأ في حضن الأسرة. وأنّ هذه المسؤولية لاحقًا هي تفاعل مشترك بين الفرد وبين الجماعة. كل يقوم بدوره تجاه الآخر، لتحقيق العدالة الإنسانية الّتي هي هدف الأنبياء والرسل. لذا، كانت للدين مكانة بارزة وأصيلة في تحمُّل المسؤولية الاجتماعية وفي دعوة المتدينين بخاصة، والنّاس بعامة إلى عدم التخلّي عن تلك المسؤولية.[٤٤]

*** مفهوم المجتمع عند الإمام موسى الصدر**

عرَّف الإمام الصدر مفهوم المجتمع من خلال بعدين (الإنسان زائد العمل المتبادل) لا يوجد هناك مجتمع لا يوجد فيه إنسان وعمل، لأن المجتمع لا يتم الا من خلال أفراد يجمعهم عمل متبادل كما أن المجتمع لا ينبى إلا من خلال الإنسان ولأجل الإنسان.

إن المجتمع يتم بأفراد يجمعهم عمل متبادل، حيث أنه من غير الممكن وجود مجتمع من غير أفراد متفاعلين.

"الإنسان يتكوّن مع الغير فهو منذ البداية بحاجة للآخرين إلى بني نوعه، وثقافته مرتبطة ارتباطاً كلياً بوجود الغير وكذلك المستقبل، فإنه يؤثر فيه وفي وضعه وفي حركته".[٤٥]

---

[٤٣] موسى الصدر، محاضرة بعنوان " لماذا تأخّر المسلمون عن ركب التقدم العلمي والمادي ١، ضمن كتاب: الإسلام والمجتمع، م.م، ص ٧٥-٧٦

[٤٤] طلال عتريسي، مشاركة بعنوان: "مسؤولية الإنسان الاجتماعية في فكر الإمام موسى الصدر"، ضمن أعمال مؤتمر كلمة سواء الحادي عشر، عنوانه: اجتمعنا من أجل الإنسان الإنسان في رؤية الإمام الصدر، م. م.، ص ١٣٤و١٣٥

[٤٥] موسى الصدر، التغيير ضرورة حياتية محاضرات ومقالات للإمام السيد موسى الصدر/ موسى الصدر. - ط ١. - بيروت مركز الإمام موسى الصدر للأبحاث والدراسات، ٢٠١١، ص ٦٥

"فالإنسان رغم حريته في التصرف فهو ذو بعد آخر ألا وهو المجتمع وحتى نتمكن من تكوين مجتمع منبثق عن واقع الإنسان علينا أن نحافظ على البعدين. إذاً، لكي نبني المجتمع فإننا بحاجة إلى الإنسان زائد العمل المتبادل، فالركن الأساسي للمجتمع هو العمل".[٤٦]

"إنّ الإنسان في حاجاته وكفاءاته وضمن المجتمع الذي يحتضنه يجب ان يكون منسجماً مع مجتمعه، فكلما نمت حاجة من حاجاته على حساب الأخرى أصبحت وبالاً، وكلما نما الفرد أو حاجاته على حساب بقية الأفراد أصبح ذلك وبالاً، وكلما نمت جماعة أو حاجاتها على حساب جماعات وحاجات أصبحت وبالاً ومصيبة..". [٤٧]

*** مفهوم الإيمان في فكر الإمام الصدر**

ماذا نعني بالإيمان؟ ماذا نقصد بالإيمان؟ وما هي ميزة هذا العصر.

يقول الإمام الصدر: "الإيمان الذي نقصده، وهو الإيمان بالله، وهناك فرق بين الإيمان بالله والعلم بوجود الله في مصطلحنا. قد يعلم الإنسان أن الله موجود، ولكنه لا يؤمن. قد يقتنع ويدرك بأدلة قاطعة وبأمارات متعددة وببراهين لاهوتية كلامية أن الله موجود؛ ولكن هذا لا يعني الإيمان. فالإيمان يحتاج إلى عنصر آخر، ذلك العنصر الذي جعل هذه الكلمة تشتق من كلمة «أَمِنَ». الإيمان هو العلم الذي يقترن بشيء من الاقتناع النفسي والطمأنينة في وجود الإنسان. حينما شعرنا بأننا، بعد جهد وقلق، وشك وتحرك، عرفنا وآمنا بوجود الله، وارتاحت نفسنا واستقر رأينا وهدأ قلقنا وتشككنا، هذا الذي نقصده بالإيمان".[٤٨]

ما هي ميزة العصر؟ يقول الإمام الصدر حسب فهمي اثنتان: –

أولاً: "في الحياة المعاصرة

أن العصر الحديث الغريق بالحضارة المادية التي [حاولت] أن تجعل العلم والحضارة والصناعة والفن والفلسفة، حاولت أن تجعل منها بديلًا عن الله عن المطلق".[٤٩]

يتابع الإمام شارحاً بقوله، أن الحضارة المادية تنكرت لله، ولم تنكر الله، ولم تفلسف الإلحاد. الحضارة الغربية تختلف عن الحضارة الشرقية الشيوعية، الحضارة الغربية لم تدعِ أن الله ليس موجود ولم تؤسس الفلسفة المادية، ولكنها تنكرت لله أيضاً.

"فأخرجوا عنصر الإيمان بالمطلق، بالله، من المختبر، من الكتاب، من الصف، من المدرسة، من العلاقات القائمة بين أبناء المجتمع الواحد؛ وتركوا ميدان الله في الكنيسة أو المسجد؛ وسجنوا إلههم في مساجدهم أو كنائسهم؛ وودعوه حينما خرجوا من الكنائس، وكأنه لا يحرك ساكنا ولا يؤثر

[٤٦] المصدر نفسه، صفحة ٦٦١-

[٤٧] صدر هذا الكلام في الخطبة الشَّهيرة للأمام "حفاظا على الإنسان"، في كنيسة الكبوشيَّة في بيروت ١٩٧٥/٢/١٨، ونص الخطبة مثبت في: الإمام السيّد موسى الصَّدر، أبجديَّة الحوار – محاضرات وأبحاث للإمام السيد موسى الصَّدر، إعداد حسين شرف الدين، دار الأرقم، الطبعة الأولى، ١٩٩٧، صور، ص ١٧١

[٤٨] الصدر، موسى، حركيَّة الإيمان: محاضرات للإمام السيد موسى الصدر/ موسى الصدر. -ط١.- ص ٨٤ ، بيروت: مركز الإمام موسى الصدر للأبحاث والدراسات، ٢٠١٦

[٤٩] المصدر، موسى، حركيَّة الإيمان، المصدر سابق، ص ٨٧

أثراً علمهم أو مدرستهم أو مجتمعاتهم أو اقتصادهم أو سياستهم".[٥٠]

تنكروا لله وحاولوا أن يعوضوا هذه الخسارة التي شعروا بها، وعن هذا القلق الذي حصل للإنسان نتيجة للتنكر المطلق لله، عوضوا عنه بالعلم، فقالوا بالعلم نحلل ونبحث ونجيب ونعيش وعلى العلم نستند.

فقالوا: نحن" نشعر بوجود الله في خلواتنا، في مرضنا، في فقرنا، في محننا، في كنائسنا، في مساجدنا، أمام موتنا نشعر بالله. أما الله في الحياة فلا نرى له أثراً أبداً". حاولت الحضارة الحديثة عزل الله عن حياتهم وتنكروا لله، فشعروا بالقلق.

"لأن العلم، والصناعة، والفلسفة، والأدب، والفن، والشعر، والأخلاق وكل ما هو مصنوع الإنسان متطور، متكامل، وبالتالي متزلزل؛ ولا يمكن للإنسان أن يستند على الشيء المتزلزل المهزوز. فبقي الإنسان قلقاً، يحتاج إلى الاستناد إلى ما يُطمئن قلبه، وإلى ما يجعله مستقراً".[٥١]

ثانياً: الذي تحدث عنه الإمام الصدر

والذي زاد الطين بله حسب تعبيره وهو: –

"أن الحركة الحديثة للعلم والصناعة وللمكتشفات، بدأت تتحرك بسرعة متناهية بينما، بالأمس كنا نعيش عشرات السنين في نظرية، أو في قاعدة فكرية، أو في نوع خاص من الحياة أو نوع معين من النظام..."[٥٢].

أصبحنا نعيش في عصر بحسب تعبير الإمام، ظاهرته الأولى التحرك السريع في كل شيء." أصبحنا نعيش كل يوم مع شكل من التفكير، ومع نوع من الفلسفة، ومع رأي في النظام وفي العلم. هذا التحرك السريع والاستناد إليه كمطلق يزيد في قلقنا. لا نتمكن أن نحب أن نستقر ولا يمكننا أن نرتبط نفسياً. فبالتالي لا يمكننا أن نستأنس، وأن نحب وأن نعلق الأمل، وأن نشعر بالسكينة والهدوء..."[٥٣].

ونتيجة لهذين العاملين: وهما عصر ظاهرته الأولى التحرك السريع، والعصر الحديث الغريق بالحضارة المادية التي حاولت عزل الله عن التأثير في الحياة، نعيش في قلق مستمر. والقلق برأي سماحته هو عدم المعرفة للمستقبل.

*** الإنسان محور البناء الحضاري**

إنَّ الإمام الصَّدر منفتح، على كل واحدة من التَّجارب الحضاريَّة للإنسان؛ بيد أنَّ هذا الانفتاح لا يعني التَّسليم بقبول جميع ما يمكن أن تقدِّمه هذه التَّجارب. لابُدَّ من امتحان لكل تجربة، والمعيار في الامتحان يكمن في قابليَّة كل تجربة حضارية للتفاعل الإيجابي مع الرِّسالة التي ارتضاها الله للنَّاس على اختلاف مللهم ونحلهم والتي يختصرها الإمام الصَّدر بما يمكن تسميته الفاعليَّة الإيجابيَّة لخلافة الإنسان لله في الأرض، يرى الإمام الصدر أن من واجب الإنسان ومن أسس رسالة وجوده الإنساني أن يكون موجودا علميَّاً، متمثِّلة في قول الإمام: "جُعِل الإنسان خليفة الله في الأرض، وأُعطِيَت له مفاتيح الكون، وعلِّمَ الأسباب والأسماء، وسجدت له الملائكة، وسُخِّرَت له القوى الكونيَّة كلها. والطَّريق الوحيد

٥٠، المصدر نفسه، ص ٨٧
٥١ الصدر، موسى، حركيَّة الإيمان، المصدر سابق، ص ٨٨-٨٩
٥٢ المصدر، موسى، حركيَّة الإيمان، المصدر نفسه ، ص ٨٩
٥٣ المصدر نفسه، ص ٨٩ و ٩٠

إلى المقام المنشود–مقام خلافة الله في الأرض– تبديل القوَّة بالفعل، واكتناه العلم بالكون وقواه واكتشاف قوانينه".[٥٤]

الآيات الكريمة التي تستند إليها هذه النظرية كثيرة منها: –

[55].} وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً {

[56].} وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ {

[57].} وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ {

ووفق هذه النظرية يتحمل الإنسان المسلم مسؤولية القيام بأعباء الخلافة في الأرض، مسؤولية الخلق والإبداع والتصرف في قوانين الطبيعة واستخدامها بقدر ما وهبه الله من قدرة، ولا يمكن لإنسان يعيش هذا المفهوم أن يظل خاملاً متواكلاً غير متفاعل مع قوانين الكون والطبيعة، وغيرَ عامل على تسخيرها على طريق تحقيق مسؤوليات الخلافة.

*** المحتوى الداخلي للإنسان دور أساس في المجتمع الإنساني**

للحرية الاجتماعية والفكرية دور أساس في المجتمع الإنساني؛ لأنه يتعلق بحركته الذاتية، ويتبع مدى إمكانية استيعاب الإنسان لدوره في حركة التاريخ، ويبتني هذا الإمكان على المحتوى الداخلي للإنسان، وهو الأساس لحركة التاريخ، وهذا لا ينفي العوامل الخارجية الأخرى المؤثرة على حركة الإنسان الذاتية، فإن دور هذه العوامل تكون بمقدار ما تؤثر على محتواه الداخلي، أي تصوره المستقبلي للأمور وإرادته التحرك نحو هذا التصور.

والحريَّة، كما يراها الإمام الصَّدر، مُحرِّك إنساني أساسي وضروري؛ فالحريَّة، عند الإمام الصَّدر، ركيزة إيمانيَّة لا بُدَّ من التمسُّك بها لصالح الإنسان ولتأكيد الإيمان بخالق الإنسان ومُنْشئه؛ وهذا ما يُشير إليه الإمام الصَّدر بوضوح كلِّي إذ يقول " لا يقوم بتحديد حريَّات الفرد إلاَّ من كفر بفطرة الإنسان، فطرة الله التي فطر النَّاس عليها". ويميِّز الإمام الصَّدر بين ما يسميه الحريَّة الكاملة والحريَّة الحقيقيَّة؛ وهذا التمييز لا يصوِّر، واقعاً، نوعين من الحريَّة، بقدر ما يرسم مستويين متلازمين فيما بينهما للحريَّة وأحدهما مؤسس للآخر. فالحريَّة الحقيقيَّة، وفاقاً لما يشير إليه الإمام الصَّدر، حريَّة على الإنسان أن يسعى إلى تحقيقها تأميناً لحقيقة وجوده وتفعيلاً إيجابيَّاً وإيمانًا شرعياً لهذا الوجود. إنَّها حريَّة تكمن في خلاص المرء من "أسباب الضغط الخارجي وأسباب الضغط الداخلي، وعلى حد تعبير الإمام علي "من ترك الشهوات كان حرًّا".[٥٨] ويفصِّل الإمام الصَّدر مفهومه لهذه الحريَّة قائلاً "إنها تحرّر من الغير وتحرّر من النَّفس. وإذا فسَّرنا الحريَّة بهذه الطَّريقة بإمكاننا ألا نعتقد بوجود حد للحريَّة، لأن الحريَّة التي تصطدم بحريَّة الآخرين عبوديَّة للنَّفس ومتابعة للشهوات".[٥٩]

أمَّا الحريَّة الكاملة، عند الإمام الصَّدر، فهي الجوهر الذي تنبثق منه سلوكيَّات الحريَّة ومبادئ التعاطي مع قضاياها؛

---

[٥٤] مركز الإمام الصَّدر للأبحاث والدِّراسات، الإسلام وثقافة القرن العشرين، مرجع سابق، ص. ٣٣١-

55 قرآن كريم، سورة البقرة، الآية ٣٠

56 قرآن كريم، سورة الأنعام، الآية ١٦٥

57 قرآن كريم، سورة الحديد، الآية ٧

[٥٨] الإمام موسى الصدر، حوارات صحفيَّة ١، تأسيساً لمجتمع مقاوم لمركز الإمام الصدر للأبحاث والدراسات، ط١ بيروت، ٢٠٠٠، ص ٤

[٥٩] وجيه فانوس، الحرية والغرب في رؤية الإمام موسى الصدر، كلمة سواء، المؤتمر السنوي التاسع،

إنها قيمة الحريَّة ومعيار السلوك في رحابها ومقياس التعامل الإنساني معها. الحريَّة الكاملة عند الإمام الصَّدر، "هي الحق، هي "من الله"، وهي التي "لا حدَّ لها".

الحُريَّة، في فكر الإمام الصدر، مسؤوليَّة إنسانيَّة تجاه الله، وهي مفتاح أساسي في تكوين الوجود الخَيِّر للمجتمع الإنساني، أساس فلسفة الإمام الصدر. أمَّا الآخر، بما في ذلك الغرب، فالتعامل معه، بنظر الإمام السيِّد موسى الصَّدر ومبادئ تفكيره، فيكون من خلال القابليَّة الذاتيَّة والفكريَّة والحضاريَّة لهذا الآخر في تحقيق رسالة الله في خلقه وجعلهم خلفاء له في الأرض.

*** الأساسُ في البِنيَّةِ الفكريَّةِ للإمام السيِّد موسى الصَّدر**

إن الأساسُ في البِنيَّةِ الفكريَّةِ للإمام السيِّد موسى الصَّدر، وكما هو معروف لدى الجميع ومن خلال ممارسات الإمام وكتاباته، قضيَّةُ تأمين الحياة الاجتماعيَّة الصَّالحة للإنسان. فليست الحياة، بحد ذاتها في فكر الإمام الصَّدر، سوى وسيلة إلى رفعة الإنسان وتحقيق قيم إنسانيَّته كما تدلُّ عليها الشَّريعة الإسلاميَّة السَّمحة؛ ولذا، يمكن القول إن الحياة ليست سوى إنفاذٍ لمبادئ الشَّريعةِ الإلهية المقدَّسة في الوجود الإنساني وغايته. ويقول الإمام في هذا الصَّدد: "يعطي الإسلام مفهوما عن المجتمع ينبثق من واقع الإنسان الذي هو مبدأ المجتمع والغاية منه. إنَّه مجتمع إنساني لا فردي ولا جماعي، مجتمع موحَّد متماسك، لا منقسم متصارع ملونٌ حسب انفعالات الأفراد والجماعات بالمؤثِّرات الكونيَّة التي تحيط به، واحد في كثرته شأن الكون كله، وشأن الإنسان نفسه، متعاون متسابق إلى رضوان الله".[٦٠]

كان الإمام الصَّدر واعياً لهذا الأساس المكوِّن لجوهر البنية الفكريَّة عنده، من بداية مسيرته الحياتية وحتى آخر ما نعرفه من مراحل هذه المسيرة؛ كما ظلَّ الإمام متناسقاً، طوال هذه المسيرة، مع هذا الأساس ومتناغماً مع تطوُّراته وتنوُّعاته واحتياجاته. ومِن هنا، فقد يمكن القول أنَّ الإمام الصَّدر جعل من الاجتماع الإنساني الخَيِّر نِبراساً له يتوجَّه إليه عبر قِيَمِ الإسلام ومبادئه وتشريعاته.

وانطلاقاً من هذا التَّركيز الأساسي والنوعي على الوجود المجتمعي للإنسان، في فكر الإمام السيِّد موسى الصَّدر، فإنَّ موضوع الحريَّة الإنسانيَّة يطرح نفسه بشدة وقوة في هذا المجال؛ خاصَّة وأن الحريَّة قضيَّة مفصليَّة في فاعليَّة الوجود الإنساني عامَّة، ومحور أساسيّ في تشكُّل أي تجمُّع إنسانيّ بشكل خاص.

ولذا، فإنَّ معيار القدرة على الفعل المجتمعي الإنساني يرتبط ارتباطاً عضوياً بمفهوم المجتمع الإنساني للحريَّة. والإمام السيد موسى الصَّدر لم يغفل البتَّة عن هذه القضيَّة المفصليَّة والمحور الأساسي في الفعل المجتمعي الإنساني؛ وها هو يقول "الحرية هي أفضل وسيلة لتجنيد طاقات الإنسان كلها، ولا يستطيع الفرد أن يخدم في مجتمع لا تسوده الحريَّة، ولا يستطيع أن ينطلق بجميع طاقاته وينمي جميع مواهبه إذا أعوزته الحريَّة".[٦١]

---

[٦٠] مركز الإمام الصَّدر للأبحاث والدِّراسات، الإسلام وثقافة القرن العشرين، مرجع سابق، ص ٣٣

[٦١] الإمام السيد موسى الصدر، حوارات صحفيَّة ١، تأسيساً لمجتمع مقاوم، مرجع سابق، ص ٣.

"فالحريَّة أفضل وسيلة لاستثمار طاقات الفرد في خدمة مجتمعه، والحريَّة أيضا اعتراف بكرامة الإنسان، وحسن الظَّن بالإنسان، بينما عدم الحريَّة إساءة ظن بالإنسان، وتقليل من كرامته".[٦٢]

ويضيف الإمام، مُصَوِّراً فاعليَّة غِياب الحُريَّة في الحياة الإنسانيَّة، إذ يقول: "إن غياب الحرية يجعل الفرد يخضع للحجم الذي يقدمه الغاصب للحريَّة، يقدمه للإنسان فيتقزَّم الفرد ثم تتقزَّم الجماعة. وعندما يرفض الإنسان هذا التَّحجيم ويحاول، ونحاول معه بمقتضى إيماننا، الحدَّ من طغيان هذه القوة المفرِّقة والسَّاحقة، فإنما يدافع إنساننا وندافع معه عن طاقات الإنسان وكرامته، دون فرق بين الصيغة التي يأخذها هذا التَّحجيم عبر الزَّمن الطويل".[٦٣]

*** حرية الانفتاح على الثقافات عند الإمام الصدر**

كان الإمام الصدر يرى الإسلام يرحب بكل حركة فكرية إيجابية، وكل تطوير عقلي سليم، ويعتبر هذا جزء من رسالة الإنسان في الحياة وواجبًا من واجباته، ولا تنتهي فاعلية الإنسان عند هذا الحد، فهو يدخل هذا العنصر الجديد في جسمه الثقافي، ولا يبدي الإسلام أي تحفظ اتجاه النشاطات الثقافية بسبب التخوف على ذاته أو إضعاف الدين في نفوس أبنائه، فلقد واجه الإسلام لأول مرة ثقافات جاءت من مصادر غير إسلامية، واجه الإسلام هذه الثقافات ثم انتقلت من مختلف حقولها إلى المجتمع الإسلامي فلاقت شيئًا من الصدام والتردد، ثم انطلقت جزءاً من الثقافة الإسلامية وتوسعت ونشطت حتى لكأن المجتمع الإسلامي هو صاحب الثقافة فأدى الأمانة بدوره إلى العالم.[٦٤]

فالإمام الصدر كما يرى وحدة الأديان، لأن الثقافات أصولها واحدة أيضًا، فاطلع السيد وقرأ التوراة والإنجيل، وزار الدول الغربية والعربية، وانطلق في رحاب ثقافات العالم متفاعلًا ومحلّلًا وناقدًا، منطلقًا من ضرورة الإسلام عميقة الجذور المستقاة من تفاعل الحضارات في الزمن القديم، وكان أثر كل ذلك يطفوا على أفكاره وسلوكه، فيوضح في النهاية أن الدراسات والمطالعات في مختلف الحقول الثقافية تنطلق من عالم رحب واسع وتحتفظ بالإطار الرباني الثابت، الذي لا بدّ منه في الحياة.[٦٥]

يعتبر الإمام الصدر بأنّ الانفتاح على الثقافات والعلوم البشرية من واجبات الإنسان الدينية. يجب على الإنسان أنّ يفتح صدره لقبول الثّقافات البشرية فيقتبسها ويهضمها وينشطها، ويحسب هذه النّشاطات من واجبات الإنسان في الحياة ورسالته في الكون، وأنّ الثّقافة الإسلامية تحرّك الإنسان حركـــة دائمة نحو التقدّم، في مختلف مجالات

---

[٦٢] المصدر نفسه، صفحة، ص ٤

[٦٣] صدر هذا الكلام في الخطبة الشَّهيرة للأمام "حفاظا على الإنسان"، في كنيسة الكبوشيَّة في بيروت ١٩٧٥/٢/١٨، ونص الخطبة مثبت في: أبجديَّة الحوار – محاضرات وأبحاث للإمام السيد موسى الصَّدر، إعداد حسين شرف الدين، دار الأرقم، الطبعة الأولى، ١٩٩٧، صور، ص ١٧١

[٦٤] موسوعة الإمام موسى الصدر، الجزء١، الصفحة ١٤٣. وبتصرف حيث إن أفكار الإمام تسهب في شرح واقع العالم، ومكانة الأمة الإسلامية فيها، والخروج من الدراسة بحكم موضوعي، فطالما أن الثقافة العالمية لها جذور واحدة، والحكمة ضالة المؤمن، فلا على المسلم حرج أن يأخذ منها طالما لا تتعارض مع دينه، وكل ذلك في إطار الحالة الإيمانية الكامنة في قلب المسلم.

[٦٥] المصدر نفسه

التطور العقلي، وتتحمّل كل جديد بقلب عاشق، تعدّه سلوكًا إلى الله، ومعرفةً له وكمالًا للإنسان. يعتقد بأنّ الإسلام، يرحب بكل حركة فكرية إيجابية، وكلّ تطوّر عقلي سليم، ويعد كل هذا جزءًا من رسالة الإنسان في الحياة وواجبا من واجباته.

كما يرى الإمام أن من واجب الإنسان ومن أسس رسالة وجوده الإنساني أن يكون موجود علمياً.

إذ "جُعِل خليفة الله في الأرض، وأُعطيت له مفاتيح الكون، وعلّمَ الأسباب والأسماء، وسجدت له الملائكة، وسُخِّرَت له القوى الكونية كلها؛ والطّريق الوحيد إلى المقام المنشود – مقام خلافة الله في الأرض – تبديل القوة بالفعل، واكتناه العلم بالكون وقواه واكتشاف قوانينه".[٦٦]

*** الانفتاح الفكري والثقافي على الآخر**

يؤكّد الإمام الصدر هذا الفهم بقوله "تربط ثقافتنا بين السّماء والأرض، وتصل المخلوق فردا وجماعة بخالقه، فتتصف بالربّانيّة والقداسة والقوّة، وترضي بهذه الصِّفة جميع مشاعر الإنسان. ويحاول الإسلام ألاّ يجعل من هذه الصِّفة حائلاً دون العقل السّليم في انطلاقه، ولا مانعاً إيّاه من تفكيره الموضوعي في الكون، وفي الظّواهر والأحداث الكونيّة، وفي مختلف مجالات الحياة العقليّة".[٦٧]

ولا يكتفي الإمام بهذا التنظير للانفتاح الإسلامي على الآخر، بل يعمد إلى طرح نماذج عمليّة من تاريخ العيش الإسلامي تعضد مقولته وتسندها وتدفع بها إلى ممارسات تطبيقيّة في الزّمن المعاصر. فيذكر الإمام السيِّد موسى الصّدر "ننظر الآن في موقف علماء الشريعة أمام هذا الزّحف الثقافي الغريب، نجد أنّ أكثرهم كانوا يرحبون به وينشطونه، ونكتفي هنا بموقف إمام الفقهاء أبي عبد الله جعفر الصّادق فنرى في موقفه تشجيعاً للثقافة بمختلف حقولها وتعليماً لتلامذته، وتعيين بعضهم للاختصاص فيها، فقد عيّن جابر بن حيّان للتخصُّص في العلوم، وقد برع في ذلك وأصبح أباً للكيمياء الحديثة. وعيّن هشام بن الحكم، ومؤمن الطاق لدراسة الفلسفة والكلام. ونرى في كلمات الفقهاء الكبار، وأئمّة الشّريعة بصورة عامّة ما يُثبِت ترحيبهم بالثقافة الجديدة، وبيان أحكام فقهيّة لكثير من الموضوعات المستحدثة، وفي بعض الأحيان مناقشات وحوارات في الأبحاث العديدة الجديدة، نظير مباحثات الإمام الرِّضا مع عمران الصّابئي". ويستخلص الإمام من هذا كلّه أن الإسلام "يفتح صدره لقبول الثقافات البشريّة فيقتبسها ويهضمها وينشّطها ويعتبر أنّ هذه النشاطات من واجبات الإنسان في الحياة ورسالته في الكَوْن.[٦٨]

وبخلاصة عامّة، فإن بالإمكان القول أنّ فكر الإمام السيِّد موسى الصّدر يعترف بالاختلاف الذي يميز بعض النّاس عن بعضهم الآخر؛ بل هو يرى في هذا الاختلاف نعمة تساعد النّاس، فيما بينهم، على الاجتهاد والاتّحاد والاتّساق ليكونوا معاً وفي جماعيّة عملهم هذا خلفاء لله مؤدين للرسالة التي أوجدهم الله للقيام بها، فالاختلاف في العنصر والرّأي والانتاج في المجتمع العالمي يجب أن نعترف به ونعتبره كمالا وجمالا

[٦٦] الإمام السيد موسى الصدر، الإسلام وثقافة القرن العشرين، مركز الإمام الصدر للأبحاث والدراسات، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠، بيروت، ص ٣٣

[٦٧] مركز الإمام الصّدر للأبحاث والدّراسات، الإسلام وثقافة القرن العشرين، مرجع سابق، ص ٣٦١

[٦٨] مركز الإمام الصّدر للأبحاث والدّراسات، الإسلام وثقافة القرن العشرين، مرجع سابق، ص ٤٨-٥١

فطريا يسهِّل التَّعارف والتَّعاون والتَّكامُل والوحدة. هذا الاختلاف، وبتعبير أوضح، هذا التنوُّع يتجلَّى بشكله ونتائجه في جسم الإنسان وفي الصورة التي يعطيها الإسلام عن الكون. فلا سلام بلا تنسيق الجهد الثقافي ووحدة الخطَّة العامَّة. ولا سلام مع الرَّغبة في فرض وحدة الأنظمة والآراء والانتاج والمعاصر[٦٩].

إن المنطلقُ الأساس، عند الإمام، تجاه الآخر يكمن في مبدئيَّة قبول هذا الآخر وحُسن الظَّن به؛ وامتحانه، من خلال قابليته على تحقيق الرؤى الإسلاميَّة العامَّة تجاه الإنسانيَّة وتجاه المجتمع الإنساني بشكل خاص. فمقياس الاعتراف بالآخر، عند الإمام الصدر، يكمن من خلال ما يمكن أن يقدمه هذا الآخر من نفع مجتمعي للإنسان ولمسيرة الإنسانيَّة كما أمر بها الله.

وانطلاقاً من ذلك، فان الامام موسى الصدر كان دائماً يركز على الجانب الثقافي باعتباره جانباً وبعداً أساسياً في الشريعة الإسلامية، مستدلاً على ذلك بحقيقة أن الوحي الإلهي بدأ بكلمات القراءة والكتابة والقلم والسطر، ولا شك في أن بدء الوحي بذلك هو أوضح إيحاء بهذا الاصل، حيث قال تعالى: {اقرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يعْلَمْ}.[٧٠]

إن الثقافة الحقيقية، كما عبر عنها الإمام موسى الصدر، هي الثقافة التي تربط بين السماء والأرض، بين الدنيا والآخرة، وتصل المخلوق فرداً وجماعة بالخالق عز وجل، فتتصف بالربانية والقداسة والقوة، وتُرضي بهذه الصفة جميع مشاعر الإنسان.

إن الركائز الثوابت لكل ثقافة هي القيم، فاذا كانت القيم الحية المحركة هي القيم الفردية والعشائرية (القبلية) التي لا تأخذ بعين الاعتبار حاجيات المجتمع والجماعة، وكانت معادية للتغيير والابداع والتطور وتحول دون الاجتهاد والانفتاح والحوار، إذا كانت هذه القيم لا تخدم حقوق الانسان وكرامته، فإنها لا تكون ثقافة نابعة من الاسلام ولا معبرة عنه، لأنها تؤدي الى تفسخ المجتمع وتخلفه، والى ضعف الدولة وانحلالها، والى تقييد البشر بالقيود والاغلال.

إن ميزة الثقافة الاسلامية في كل عصر وزمان هي أنها تدعو الى الوحدة والحوار والتقدم في مختلف مجالات التطور العقلي، وتتمثل كل جديد وكل معرفة وتعتبر ذلك سبيلاً الى الله تعالى وما لم تنشد الثقافة ذلك، فإنها لن تكون ثقافة اسلامية حقيقية.

وهذا ما كان يردده دائماً الإمام موسى الصدر ويعمل له، حيث أنه كان يرى ضرورة لأن يأتي كل نشاط ثقافي في أي حقل من حقول الثقافة منسجماً مع النشاطات الأخرى في وحدة منسقة تعكس في سمع المثقف السمفونية الكونية، وتسبيح الموجودات كلها.

"الثقافة الإسلامية تحرّك الإنسان حركة دائمة نحو التقدم في مختلف مجالات التطور العقلي، وتتحمل كل جديد وكل معرفة بقلب مشتاق، وتعتبرها سلوكاً الى الله ومعرفة له

[٦٩] المصدر نفسه، ص ٦٧

[٧٠] قرآن كريم، سورة العلق، الآية ٣-٥

وكمالاً للإنسان. والمعرفة هذه غاية خلق الإنسان وكمال مطلق له. فالسير نحوها واجب وعبادة، وكمال".[٧١]

*** قابلية الانفتاح على الآخر**

يبدي الإمام الصدر قابلية على الانفتاح الثقافي على الآخر، ولكن بشرط أن يكون هذا الانفتاح محققاً للرسالة المجتمعية الكبرى للإنسان. "إنَّ الدراسات والمطالعات في مختلف الحقول الثقافية تنطلق في عالم رحب واسع وتحتفظ بإطاره الرباني الثّابت الذي لا بدَّ منه في الحياة".[٧٢]

ويضيف الإمام، رابطاً في هذا المجال بين ما هو أساسيَّة الحريَّة في وجود الإنسان وما هو علم ومعرفة؛ فيقول: "حرية الإرادة مُهيَّأة للإنسان لا فضل له بها، بل الفضل كله أن يختار الخير، وهذا طريق لا يمكن السير فيه إلا بالعلم الذي هو العنصر الأصيل في تكوين خليفة الله في الأرض".[٧٣]

ومن هذا المنطلق يمارس الإمام انفتاحا فكرياً على الآخر، ويبدو هذا الانفتاح جلياً من خلال قول الإمام:" إن الإسلام يرحب بكل حركة فكرية إيجابية وكل تطوير عقلي سليم، ويعتبر كل هذا جزءاً من رسالة الإنسان في الحياة وواجباً من واجباته".[٧٤]

"الثقافة الإسلامية تحرك الإنسان حركة دائمة نحو التقدم، في مختلف مجالات التطور العقلي، وتتحمل كل جديد بقلب مشتاق، وتعتبرها سلوكاً إلى الله، ومعرفة له وكمالاً للإنسان ... إن الإسلام كما قلت يرحب بكل حركة فكرية وإيجابية، وكل تطور عقلي سليم، ويعتبر كل هذا جزءاً من رسالة الإنسان في الحياة وواجباً من واجباته. ولا تنتهي فاعلية الإسلام عند هذا الحد فهو يدخل هذا العنصر الجديد في جسمه الثقافي الكبير، ولا يبدي الإسلام أي تحفظ تجاه النشاطات الثقافية بسبب التخوف على ذاته، أو إضعاف الدين في نفوس أبنائه، فالإسلام يضع للدين مكاناً أصيلاً لا يمكن أن يقوم مقامه شيء من العلوم والتشريعات".[٧٥]

إن الإمام موسى الصدر بتفاعله الخلّاق مع الثقافات المختلفة ونظرته الشمولية للكون وقاعدته الإسلامية الأصلية أنتجت فكرًا صالحًا لأن يُعمّم على البشر جميعًا، هذا الفكر ينصب على الحرية الإنسانية بكل تفاعلاتها السياسية والاجتماعية والدينية طالما أن أصولها واحدة.

*** الخاتمة**

إن الاصلاح والتحديد والتغيير حاجات ملحة عند الإمام الصدر، إنها تفرض نفسها باستمرار في عصر تسارع كل شيء، بل هي ضرورات حياتية بها يتجدد الإنسان وتتجدد الحياة... من تصدى لها نجا، ومن تخلف عنها هلك. فالحياةُ بحسب الإمام الصدر لا تقوى على البقاء في الاستمرار الا إذا ... جددت نفسها بصورة فتية ومُعافاةً.

---

[٧١] الإمام موسى الصدر، الإسلام وثقافة القرن العشرين، منبر ومحراب، أُلقيت في "الندوة اللبنانية"، بتاريخ: ١٩٦٥/٥/٢٤، ونُشرت في "منبر ومحراب" في ١٩٨١/٨/٣١

[٧٢] الإمام السيد موسى الصدر، الإسلام وثقافة القرن العشرين، مركز الإمام الصدر للأبحاث والدراسات، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠، بيروت، ص٣٦

[٧٣] المصدر نفسه، ص٤١

[٧٤] المصدر نفسه، ص ٤٢

[٧٥] الإمام السيد موسى الصدر، أبجدية الحوار (إعداد حسين شرف الدين)، بيروت مركز الإمام الصدر للأبحاث والدراسات بيروت / صور - دار الارقم، ١٩٩٧م، ص ٥٦

بالإصلاح استمرارُ الفرد والجماعة، وبالعدول عنه خطرُ الاستبدال والهلاك... فالزمن سيّالٌ متغير، وكذلك الظروف المحيطة، وما على العاقل إلا أن ينفعل ويتفاعل. والتحدي الأكبر أن تكون المحصلة لصالح الإنسان، كل إنسان. يقول الإمام الصدر: "فالأمة التي لا تعرف كيف تصرفُ طاقاتها في وجودها، لا يمكنُ لها أن تستمر في الوجود، لأنَّ من بسائط علم الحياة أن يُلفظَ الدخيل عليها. والشعبُ الذي لا يعرف كيف يخلقُ فرصته بنفسه أو يترك الفرصَ تُهدر ليس عليه أن يعتب على الآخرين الذين يخططون له فرصة الموت".[٧٦]

ولكن في الآن نفسه، والكلام للإمام الصدر.. "إذا استسلمنا دون أن نطور حياتنا ومفاهيمنا عن ديننا، ومقاييسنا الإسلامية، حسب الأوضاع الحياتية التي حصلت ونكون بمعزل عن توجيه القرآن الكريم، إذا حاولنا ذلك واستسلمنا فقد خُنَّا امانتَنا، وذُبْنا، وفقدنا كلَّ شيء"[٧٧].

لا يتقدم التاريخ عند الإمام الصدر الا بالعمل الإنساني، حيث يسمي معيقات هذا التقدم بجبهة الهدم والطغيان والظلم. بمعنى أن التاريخ لا يتحرك الا بالتفاؤل والثقة وتجاوز الجمود وتترجم حاجات المحرومين الى منجزات، عندها تبدأ مسيرة التغيير.

فالتاريخ عند الإمام الصدر: لا يدفعه الا المواقف الكبيرة المواقف البطولية واقصاء الحرمان من حياة الناس لأنه في جوهره عامل معيق لحركة التاريخ ومعطل لقدرات الملايين من الناس.[٧٨]

قال السيد الصدر لمحاوريه عام ١٩٧٣، "أن حركة التاريخ تدور حول محور واحد هو الإنسان وارادة الإنسان. أن حركة التاريخ وجبر التاريخ وعقارب ساعة التاريخ كلها تدور حول محور واحد هو الإنسان هو ارادة الإنسان".[٧٩]

*** المراجع**

قرآن كريم

الإمام السيد موسى الصدر، الإسلام وثقافة القرن العشرين، ص٣٣، مركز الإمام الصدر للأبحاث والدراسات، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠، بيروت

الإمام موسى الصدر، الإسلام والمجتمع: محاضرات للإمام السيد موسى الصدر موسى الصدر ط ١. – بيروت: مركز الإمام موسى الصدر للأبحاث والدراسات ٢٠١٩

الإمام موسى الصدر، التغيير ضرورة حياتية محاضرات ومقالات للإمام السيد موسى الصدر/ موسى الصدر. – ط ١. – بيروت مركز الإمام موسى الصدر للأبحاث والدراسات، ٢٠١١

الإمام السيد موسى الصدر، أبجدية الحوار محاضرات وأبحاث للإمام السيد موسى الصدر، إعداد وتدقيق حسين

[٧٦] الإمام الصدر، رسالة الأضحى، ١٩٧١

[٧٧] الإمام موسى الصدر، حول تفسير القرآن الكريم، "مجلة الزهراء" القاهرية، عن جمعية الدراسات الإسلامية - السنة الأولى - العدد الأول - ذو القعدة ١٣٩١ هـ. ١٩٧١ م

[٧٨] علي حسين الجابري، الإمام موسى الصدر وفلسفة التاريخ، هذا البحث قدم إلى ندوة في بيروت، ت ٢، ٢٠٠٤. بمناسبة مرور ٢٥ سنة على اختفاء الإمام موسى الصدر

[٧٩] موسى الصدر حوارات صحفية ١، تأسيسا لمجتمع مقاوم، مصدر سابق، ص ٢٨٤

شرف الدين، ط٢، بيروت، مركز الإمام موسى الصدر للأبحاث والدراسات، ٢٠٠٧م

الإمام موسى الصدر، التغيير ضرورة حياتية محاضرات ومقالات للإمام السيد موسى الصدر/ موسى الصدر. – ط ١. – بيروت مركز الإمام موسى الصدر للأبحاث والدراسات، ٢٠١١

السيد حسين شرف الدين، أبجديَّة الحوار– محاضرات وأبحاث للإمام السيد موسى الصَّدر، صور: دار الأرقم، الطبعة الأولى، ١٩٩٧، ص. ١٧١. صدر هذا الكلام في الخطبة الشَّهيرة للأمام "حفاظا على الإنسان"، في كنيسة الكبوشيَّة في بيروت ١٩٧٥/٢/١٨، ونص الخطبة مثبت.

السيد حسين شرف الدين، مشاركة بعنوان: "الإمام موسى الصدر وحق الحياة على الإنسان". ضمن أعمال مؤتمر كلمة سواء الثالث، عنوانه: بحثاً عن حق الإنسان، م. م.

السيد حسين شرف الدين، التنمية في مجتمع مضطرب الإمام الصدر والمجتمع المقاوم، ط١، بيروت، مركز الإمام موسى الصدر للأبحاث والدراسات، ٢٠٠٧م،

الإمام موسى الصدر، تسجيل صوتي من محفوظات مركز الإمام موسى الصدر للأبحاث والدراسات، (د.ت).

الشيخ محمد شقير، فلسفة الدين عند الإمام الصدر هي فلسفة تغييرية، كلمة سماحة الشيخ محمد شقير في الجلسة الأولى من مؤتمر "كلمة سواء" الثاني عشر.

طه غسان فوزي، النهوض الحضاري في فكر الإمام موسى الصدر ط١، بيروت، معهد المعارف الحكمية، ٢٠٠٧ م.

محمد علي مهتدي، فكر الإمام الصدر، مشاركة بعنوان: "البعد العربي – الإسلامي في مسيرة الإمام موسى الصدر"، ضمن أعمال مؤتمر كلمة سواء الرابع، عنوانه: الهوية الثقافية. قراءات في البعد الثقافي لمسيرة الإمام السيّد موسى الصدر، م. م.

الإمام موسى الصدر، مأساة رجل الدين، أُلقيت بمناسبة تأبين سماحة العلامة السيد محمد حسن فضل الله بتاريخ ١٤/١١/١٩٧٢، ونُشِرت في مجلة العرفان، العددان ٨ ــ ٩، المجلد ٦١، تشرين الأول/ تشرين الثاني سنة ١٩٧٣

الإمام موسى الصدر، محاضرة بعنوان " لماذا تأخّر المسلمون عن ركب التقدم العلمي والمادي ١، ضمن كتاب: الإسلام والمجتمع، م. م.

طلال عتريسي، مشاركة بعنوان: "مسؤولية الإنسان الاجتماعية في فكر الإمام موسى الصدر"، ضمن أعمال مؤتمر كلمة سواء الحادي عشر، عنوانه: اجتمعنا من أجل الإنسان الإنسان في رؤية الإمام الصدر، م. م.

الصدر، موسى، حركيّة الإيمان: محاضرات للإمام السيد موسى الصدر/ موسى الصدر. –ط١–، بيروت: مركز الإمام موسى الصدر للأبحاث والدراسات، ٢٠١٦

الإمام موسى الصدر، حوارات صحفيَّة ١، تأسيساً لمجتمع مقاوم لمركز الإمام الصدر للأبحاث والدراسات، ط١ بيروت،٢٠٠٠،

وجيه فانوس، الحرية والغرب في رؤية الإمام موسى الصدر، كلمة سواء، المؤتمر السنوي التاسع.

الإمام موسى الصدر، حول تفسير القرآن الكريم، "مجلة الزهراء" القاهرية، عن جمعية الدراسات الإسلامية – السنة الأولى – العدد الأول – ذو القعدة ١٣٩١ هـ. ١٩٧١ م

علي حسين الجابري، الإمام موسى الصدر وفلسفة التاريخ، هذا البحث قدم إلى ندوة في بيروت، ت ٢، ٢٠٠٤. بمناسبة مرور ٢٥ سنة على اختفاء الإمام موسى الصدر.